وهنا نصل إلى بيت القصيد ، فللأدب عصوره الأدبية الخالصة التى قد تتأثر بالسياسة أو بالحياة الاجتماعية أو بألوان الحياة المختلفة . ولكن هذا لا يعنى أنه يتابع أمواج السياسة أو غيرها من المؤثرات علواً وانخفاضاً ، أو ينساق وراء تياراتها مداً وجزراً ، لأنه ظاهرة مستقلة كما يقول طه حسين بمعنى أنها ينبغى أن تؤخذ من حيث هى وتقسم لها عصورها الخاصة بهـا ، ومن هنا تكون هذه العصور عصوراً أدبية خالصة ، وهو ما يشير إليه الدكتور طه حسين ويقره على نحو ما سنرى . وكل ما فى الأمر عنده الآن أن هذه العصور لا ينبغى أن تكون هى عصور السياسة نفسها أو غيرها من عصور الحضارة أو عصور التاريخ العام . وإذا كان ذلك كذلك ، فأين ينتهى إذن العصر الأدبى للجاهلية ومتى يبدأ العصر الإسلامى ؟

الواقع أن الدكتور طه حسين لا يعرض لهذه المسألة فى صورة مباشرة فى كتاب « الأدب الجاهلى » وإن كان قد عرض لها فى موضع آخر سنأتى إليه بعد قليل . أما فى « الأدب الجاهلى » فقد عرض لمسائل أخرى نستطيع أن نستخلص منها ونستنبط ما يخدم النتيجة التى نريد أن نصل إليها من غير قسر أو إسراف ، لأننا إنما نضع أيدينا من ذلك كله على دلائل قاطعة لا تدع مجالا لشك أو ينفذ إليها ترده ، وإن كان الباحث نفسه لم يكن يسعى من ورائها إلى ذلك . بل إن بعض ما كان يراه قد يؤدى إلى شىء آخر على نحو ما سنرى . فالموضوع الأساسى عند الباحث فى هذا الكتاب هو الشك فى صحة الشعر الجاهلى أو الأدب الجاهلى بوجه عام . ولكن هذا الموضوع لا يعنينا الآن فى شىء ، وإنما الذى يعنينا تلك المسائل الجانبية التى تتصل به وتتصل بنا فى الوقت نفسه ، ترتبط به من وجه من الوجوه وترتبط بالأمر الذى نحن بصدده من وجه آخر .

والعبارة التى نريد أن نبدأ بها الآن هى تلك العبارة نفسها التى ختم بها طه حسين كتابه فى أقصى نهايته ، وذلك حين يقول :

« وإذا لم يكن بد من أن نختم هذا السفر بجملة تلخص رأينا